منشآت مصر الاقتصادية وأقطابها — ١

طلعت حرب

زعيم النهضة الاقتصادية المصرية

[طلب الى أحد المصريين الافاضل الذين يجمعون بين الدراسة المستفيضة لنهضة مصر الاقتصادية وخبرته الوثيقة بزعيم هذه النهضة وخالقها وراعيها سعادة طلعت حرب باشا كتابة فصل في هذا الرجل الذي تفضل وواقانا بهذه الصورة الشيقة التي لاشك في أنها مصورة عما تكنه قلوب ملايين المصريين نحو بطل نهضتها الاقتصادية — المقتطف]

طلب الي المقتطف ان أكتب فصلاً عن صاحب السعادة محمد طلعت حرب باشا — يسهل به سلسلة مقالاته عن منشآت مصر الاقتصادية واقطابها — وهو الرجل الذي تعرفهُ مصر ويعرفهُ الشرق والعالم . وهأنذا احاول ان أرسم صورة لشخصيته الفذة متخذاً ألوانها من ألوان الصورة المنطبعة في ذهني ونفسي . وفي لفظ المحاولة اعتراف ، غير صريح ، بالعجز ! ولا غريب في ذلك . وإلاَّ فماذا نقول عن الشمس التي نراها وتلمس الارض نورها ؟ هل في قدرة مصور ماهر وكاتب بليغ ان يبرزا هذا النور ابهاج الحلي في صورة أبدع وأروع مما يعرفها الناس؟ وأن يأتيا لهم بالجديد ، ويكون للحديث جماله وسحره وللوصف قيمته ومعناه !

ومع ذلك يحلو للقلم ان يركب الصعب وان يقدم على الكثير ، في اقدامه اليوم شرف كبير ومعنى وطني سامٍ

***

عرفت محمد طلعت حرب باشا يوم ان عرفتهُ مصر بأجمعها . يوم أن نادى بأنشاء مصرف مصري صميم يحفظ للامة ثروتها وللشعب اموالهُ . وقد مددت لهُ يدي — كغيري — على البعد ، قبل ان تراه العين من قرب . فقد كنت عضواً في احدى لجان الطلبة التي تطوعت في ذلك الوقت لحث موسري القاهرة على اقتناء اسهم هذا البنك الجديد . والحق يقال انهُ لو لم تكن لحداثة السن من ميزة غير عدم الاكتراث ، لكفاها ذلك صفة لها جليلة ! كنا نخرج من بيت الى بيت أو

على الأصح ، من قصر الى قصر ، لا يثنيها رفض الأول عن طرق باب الثاني . واستمرت بنا الحال أياماً وسنين يدفعنا عزم الشباب وتقودنا الفكرة الوطنية الجليلة التي نادى بها محمد طلعت حرب باشا

من أراد الحديث عن هذه الشخصية ، فليبدأ بعرض ذكريات تلك الايام التي صحبت اخراج فكرة تأسيس بنك مصر الى حيز العمل والوجود

كنا حتى ذلك الوقت امة تقبض على نفسها — حتى في أحلامها — بما لها تجده بين أيدينا . أما المشروعات القومية المالية والاقتصادية الكبرى فقد كان الحديث فيها يؤخذ على أنهُ قصص من تلك التي ملأت أدمغة الشرق من قديم ، فأصبحت فكاهته ودعابته ومضيعة لوقته . والأجنبي بيننا ، يتغلغل في جسد الامة باحثاً عن مورد يشعله او قطعة من الدهن يمتصها ونحن اهل الارض والماء والهواء ، نفسح له في ارضنا الطريق ، ونفطر له في هوائنا النسيم ، ونقدم له من نبعنا الماء .

امة تعدادها خمسة عشر مليوناً من البشر ، قدمت نفسها قرباناً لجماعة من خليط الاجناس راضية باسمة ، كأن الطبيعة التي أخرجت للوجود الانسان والحيوان حرّاً ظليقاً ، لم تحضّ في ناموسها الا معهم ! او كأن الله تعالى ، رضي عن اهل الارض قاطبة ، وخص اهل الكنانة بالغضب ، خلقهم ليسيئوا الى أنفسهم بأنفسهم . . . . . حتى قبلنا العيش في حياة الذل والخنوع !!

***

هذه كانت حالنا ، وهذا كان مقامنا يوم ان وقف محمد طلعت حرب باشا ينادي بتأسيس بنك مصر

فان تلك الايام من اليوم ؟!

برهة من الزمن قدرها سبعة عشر عاماً مرت ! هي في عمر الامم ثانية أو أقل . فاذا تم في هذه الثانية ؟ ومن ذا الذي ازال الصعاب ، وغلب الاوهام ، وقلب عادات تأصلت في الادمغة والعقول ، وبدّل أنظمة قديمة تمكنت من النفوس ؟

تأسس بنك مصر ! وفي حروف اسمه حرفاً حرفاً ما يغني عن التعريف والوصف ، فهو من مصر ولمصر . أقامهُ عزيمة جبارة تعاونها أيدٍ مخلصة أمينة على الوطن وأهله . ارتفع بناؤه وعلا بمضي السنين حتى أصبح حجر الزاوية في اقتصاد الأمة ، ومعقل ثقتها ، ورمزاً مجسماً لما فيها من حيوية كامنة ، ظلت نائمة حتى أتاها المحرك القوي والمرشد الأمين فانطلقت حية عاملة

لم يكن لمثل محمد طلعت حرب ان يكتفي بالأساس . بل أنشأ البناء وأحكم بنيانه ، ثم بنى عليه صرح الاقتصاد الشامخ ، لا يحد له من طول او عرض

ثلاثة وهبها الله الانسان فيها قوته ومنته وكرامته

ثلاثة ان هي اغتصبت منهُ سلبتهُ الطبيعة شخصيته ومميزاته فساقهُ الغير سوق العبيد والانعام

ثلاثة : هي الارض والهواء والماء ، لا وجود ولا كيان للانسان بغير حرية امتلاكها وحرية السيطرة عليها

ومصر التي أعزَّها الله بنعمة الاسلام بعد ان مكَّنها في الارض بقوة القراعنة ، اغتصب الغاصبون — على مرِّ السنين والايام — أرضها وماءها وهواءها حتى أصبح زمام أهلها بيد غيرهم

***

بعد ان أسس محمد طلعت حرب باشا بنك مصر ، جعل همه — وهو الذي لا يعرف للهدوء والراحة طعماً — ان يعيد لمصر ولأهلها ما وهبها الله من خيرات هي لهم لا لغيرهم

ولم يكن الأمر أمامه سهلاً ممهداً . فقد كانت الأمة في جوٍّ سياسي غير مستقر ، تلعب بها أهواء داخلية وخارجية . والعنصر الاجنبي فيها قوته وجبروته وهو دائب على الحد من سلطة الأمة اقتصادياً قبل كل شيء ، عاملاً بما امتدَّ له فيها من سلطان على عرقلة كل عمل وطني

ولكن أين جميع هذه العوامل من عزيمة قوية وايمان صادق ووطنية حارة ، لا تعرف وهناً ولا استكانة . واذا ارادت شيئاً كان لها ما تريد !

في خمسة عشر عاماً ، لعمر في هذا الزمن القصير ، قهر محمد طلعت حرب هذه القوى التي يمتد اصلها الى عهد اسماعيل اي الى اكثر من سبعين عاماً ! !

أرجع لنا من الارض ثروتها، وأقام لنا في الهواء مكاناً ، وجعل لنا في الماء عزاً وسلطاناً :

هل زرت مصانع الغزل والنسج في المحلة الكبرى ؟[1] وهل رأيت هذه المدينة الصناعية الكبرى التي لا يملك الشرق مثلها ، والتي يعمل فيها اربعون الفاً من الايدي ، تجري في عروقها دماء المصري الصميم ؟

هل زرت دمياط ولمست حرير مصر ورأيت كيف تنسجه اليد المصرية ؟

هل زرت مصنع جلود الاسكندرية ومصبغة الحرير في حلوان ومصنع النسيج الرفيع في كفر الدوار ومعاصر الزيوت في بني قرة ومصنع الكتان في القراطين ؟ ؟

(١) اقتطف لي مقتطف يونيو الماضي نشر وصفاً صناعياً اقتصادياً لهذه المصانع العظيمة

حضرة صاحب السعادة طلعت باشا حرب

هل رفعت رأسك الى الهواء وشاهدت الطيارات المصرية محلقة في جو بطائرات تقطع هواء مصر حرة طليقة شمالاً وجنوباً ، وشرقاً وغرباً ؟

هل ألفت الى الارض المقدسة على بواخر مصرية سيمة ؟ والى اوربا على شيلاتها ؟

من رأى كل هذا وأمضى اياماً بين كل هذا ، وقف حائراً يستعصب العقل الهامه الاجابة على : كيف ومتى وبأية عزيمة قام كل هذا لمصر ولمصر وحدها ! !

هو محمد طلعت حرب باشا الذي انشأ هذه المصانع وأوجدها وهو الذي أعاد لمصر هذه العظمة التي افتقدتها منذ انتهاء عصر الدولة المتوسطة من حكم الفراعنة !!

***

ثم كان ان اسعدني الحظ بلقائه وجهاً لوجه في جمع — بعيداً عن ارض الوطن — يتحدث فيهم عن صعاب ذاقها ، قابلته وهو في طريق انشائه لاحدى شركات بنك مصر . وقد ضم الجمع نخبة من رجال مصر وشبابها في الخارج . أنصت الجمع لحديثه اجلالاً واحتراماً ، ولعلها أبرز لحظة تمثل لك فيها شخصية هذا الرجل حين يتحدث اليك عن عمل من اعماله بالجلية ، هنا ترى وتلمس صفاته بارزة في كل كلمة ينطق بها . يتحدث ولا يضن بالحديث . وتشعر من حديثه بأنه يريد منك ان تعي ما يقول ، لانه يتعمد القاء الحديث دروساً وتعاليم لمن امامه

ثم كان أن وهبني الله حظ معرفته عن كثب . جهد لا يعرف الهدوء ، وحركة لا تعرف الراحة . لا قوته صغيرة أو كبيرة في كل عمل من هذه الاعمال الكثيرة المتشعبة . هو رأسها المدبر ويدها المحركة . وهو مع شدته في مراقبة عمل موظفيه ، يملك قلباً ملؤه العطف والحنو

***

مرت أمامه ذات يوم جموع عمال المحلة الكبرى وقت انصرافهم في المساء ، فان شاهدوه حتى تظاهروا امامه في حماسة داعين مهللين

فاذا صنع محمد طلعت حرب باشا ؟ حياهم والدموع تقطر من عينيه !

حنواً ؟ عطفاً ؟ سروراً وبهجة ؟ ام وطنية وايماناً ؟ ؟ هي كل هذا !

هي دموع جمعت كل هذه الصفات في قطرات خرجت من العين وان كان منبعها القلب!

قلب هذا الرجل الذي وهب نفسه من الصغر لأمته وشعبه ووطنه

ان اراد الله بالوطن فرجاً بعد شدة ، ويسراً بعد عسر ، وكرامة بعد مذلة ، وقوة بعد ضعف ، امدّ سبحانه وتعالى في عمر محمد طلعت حرب باشا اعواماً مديدة !

هي لنا وليست له !